تمثال في ميدان

محمد طلعت حرب

تأليف

مصطفى حسن محمد عفيفي

دار الكتب والوثائق القومية
مراقبة التزويد العام
رقم البيوجية: ٢٦٩٦
الفن والرقم الخاص / ٦١٢٢٥

مكتبة الصفا
٢١ ش الدويدار خلف جامع الأزهر
ت / ٥١١٧٣٣١

أوشك شهر رمضان المعظم على الانتهاء بنفحاته النورانية وبدأت الخلائق تستعد لاستقبال عيد الفطر المبارك ، وفي غمار ازدحام الأسواق بمعروضاتها اصطحب الأستاذ عبد العليم رامي ورباب لشراء ملابس العيد وفي الطريق انعطفوا إلى بنك مصر حيث أخرج الأستاذ عبد العليم (الفيزاكارد) لسحب بعض مدخراته قبل الشراء .

في الطريق نظرت رباب إلى والدها وقد بهرها سرعة إنجاز المهمة وأدهشها روعة وجمال البناء المعماري لهذا البنك فالتفتت إلى والدها قائلة :- إن هذا البنك يا أبي تحفة جمالية رائعة ترى من الذي أسسه وصاحب الفضل في إنشائه ؟

ابتسم الأستاذ عبد العليم ، وكانوا قد وصلوا إلى ميدان طلعت حرب فأشار بإصبعه إلى التمثال الرابض في وسط الميدان وقال لرباب :- هل ترين هذا التمثال الذي في وسط الميدان ؟ إن مؤسس البنك المصري هو صاحب هذا التمثال.

إنه الاقتصادي الكبير طلعت حرب الذي يرجع إليه الفضل في تأسيس هذا الصرح .

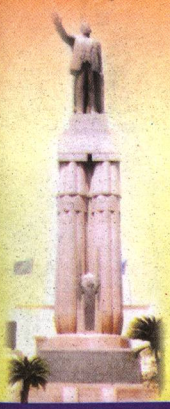

تناول رامي أطراف الحديث وبادر والده قائلاً : زدنا يا أبي معرفة بهذا الرجل ، فأنا في شوق للاستزادة بمعرفة رجالات مصر العظام .

نظر الأب إلى ولده نظرة إعزاز وفخار ثم قال : لك هذا يا رامي ، ولكن ما رأيكما لو أننا جلسنا في تلك الاستراحة القريبة لنستريح قليلا ، وأثناء تناولنا للمشروبات سأقص عليكما ما أعرفه عن طلعت حرب .

في الاستراحة جلس الثلاثة ، وأسند الأستاذ عبد العليم ظهره إلى المقعد وأردف بقوله : لقد أطلق التاريخ على محمد طلعت حرب أسماء عديدة منها (زعيم مصر الاقتصادي) و (محرر ورائد النهضة الصناعية) إلى غير ذلك من الألقاب ، وولد هذا الرجل في ٢٥ نوفمبر عام ١٨٦٧ بقصر الشوق بحي الجمالية بالقاهرة ، وبعد تعليمه بالمدرسة التحق بمدرسة الألسن وكان منذ نعومة أظفاره تعتد شخصيته على الاجتهاد والثقافة والاقتصاد ، حيث كانت الجدية هي منهج حياته ، فلا غرابة إذن أن ينجح الشاب بتفوق ملحوظ ، ويتخرج حاصلا على الليسانس عام ١٨٩٩ وأراد لنفسه طريق العمل الاقتصادي إلا أن الوظيفة الحكومية بجمودها وروتينها لم ترق له لاعتقاده أن الوظيفة

تقتل الحماس والطموح في نفسه ، ولا ترقى بعقله ووجدانه ، فبدأ في افتتاح دكان بقالة صغير في حي العباسية حيث يسكن ، وتعامل بالمليم والقرش والتقسيط والبيع بالأجل ، إلا أنه تعرض للخسارة ، وفقد رأسماله البسيط وفشلت محاولته ، ولكنه لم ييأس ، وجرب نفسه في صناعة وتجارة الألبان إلا إنه فشل للمرة الثانية ، فيعيد حساباته وأنشأ مكتب للمحاسبة ومسك الدفاتر فوفق وارتقي سلم النجاح .

وكان طلعت حرب يؤمن بأن جوهر التقدم للإنسان يكمن في قيمه الإسلامية ، وعن طريق القيم الإسلامية ينهض المصري ، وأعد لذلك الأمر عدته وبدأ في إصدار عدة أجزاء من كتاب يؤدي هذا الهدف عام ١٩٠٥ باسم (تاريخ دول العرب والإسلام) ، وبعد خمس سنوات يصدر كتاب (قناة السويس) وعلى ذكر هذا الكتاب فقد عارض طلعت حرب المشروع الإنجليزي بمد امتياز قناة السويس ٤٠عاماً أخرى ، وتصدى لصورة الاتفاق قبل توقيعه ، ونشر ذلك في جريدة الحزب الوطني (اللواء) فكان لذلك أثره في فضح المؤامرة ، وسارع أصحاب الأقلام في مناقشة الاتفاق والتنديد به ، وقد امتازت كتابات طلعت حرب في هذا الموضوع بالجانب المالي

والاقتصادي والسياسي ليصل في النهاية إلى أنه مشروع ضار لا يصح الموافقة عليه ، وبالفعل استطاعت الوطنية المصرية آنذاك أن تقف سداً منيعاً ضد مد امتياز القناة .

أتعرف يا رامي أن رجلاً مثل طلعت حرب كان أول مصري يوفق في إيجاد حل عملي لعلاج مشكلة الفقر في مصر ، ولفت أنظار مواطنيه إلى أن العلاج الوحيد لرفع مستوى المعيشة لمعظم شعب مصر لا يكون بالاعتماد على الزراعة وحدها ، وأن المشكلة الاجتماعية سوف تتعقد إذا لم يعمل أهل مصر على زيادة الإنتاج القومي ، وإيجاد عمل منتج لكل رجل وامرأة بأجر مجز ، وأن هذا العمل المجزي لا يتحقق إلا باستثمار كل ينابيع الثروة الأهلية من زراعية وصناعية ومعدنية .

إن طلعت حرب يا أبنائي لم ينس ماضينا العريق ، وكان دائم الإشارة والإشادة بتاريخ مصر القديم ، وإني أذكر له قوله " كم عمل هؤلاء الأجداد قديماً منذ عهد توت عنخ آمون إلى عهد الدولة الفاطمية ، فبين المدنية الفرعونية والمدنية العربية المجيدة جهود لم تقف عند حد تشييد القصور والقبور والمنارات والآثار بل اتجهت إلى كل معنى من معاني الروح والدين " .

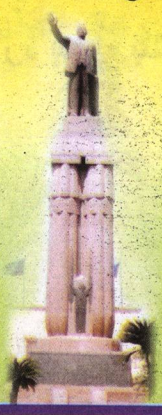

أتدرون يا أولادي أن منهج محمد طلعت حرب في مقاومة الاستعمار الإنجليزي كان يختلف عن منهج غالبية الجماهير في مصر ، لقد كان الشعب المصري ينظر إلى إنجلترا على أنها استعمار سياسي وعسكري ، بينما كانت نظرة طلعت حرب هي أن الاستعمار الاقتصادي الذي يتحكم فيه الأجانب من حكومات وأفراد هو استعمار أشد ضراوة وشراسة ضد مصر .

لقد كان استقلال مصر الاقتصادي هو الهدف الحقيقي وكان طلعت حرب هو الفارس الأول في هذا المضمار ، فقد أدرك الرجل ببراعته وفكره المستنير مدى سيادة العناصر الأجنبية وتحكمها في النشاط الاقتصادي في مصر ، ويكفي أن تعلم يا رامي أن من كانوا يعملون بالتجارة المصرية سواء كانوا مصدرين أو موردين لم يكونوا من المصريين فقد كانت البقالة احتكاراً يونانياً ، والمنسوجات الصوفية والقطنية والبياضات والفحم احتكاراً إنجليزياً ، والسجائر تابعة للأرمن ، وكان باعة المشروبات الروحية من اليونانيين والإيطاليين أما تجارة الغلال فقد كانت في أيد مختلفة من عدة طبقات .

من هنا أثمرت الفكرة التي ظلت تراود أهل مصر كثيراً بضرورة إنشاء بنك مصري صميم ، وكانت الثمرة على يد محمد

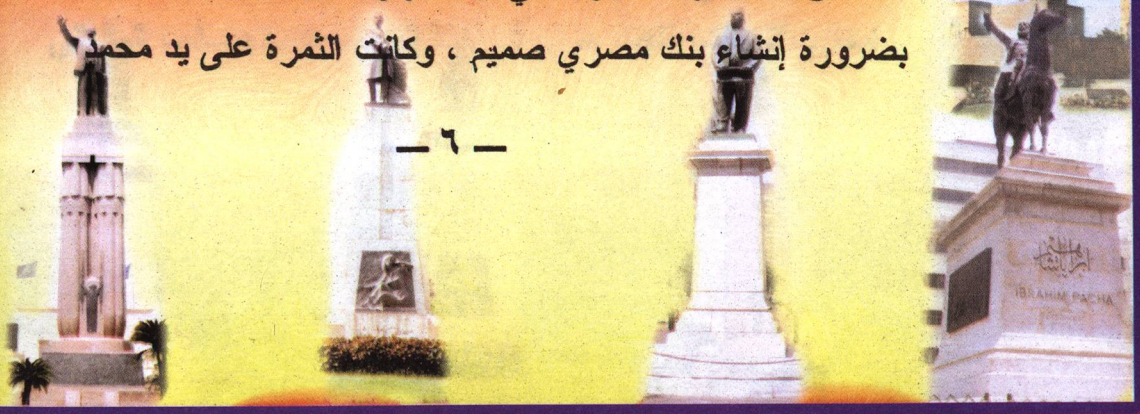

طلعت حرب فقد جاهد وعـــلا صوتـــه منبـــهاً إلـــى ضـــرورة الاستقلال التـــام ، لتكون مصر للمصريـــيـــن ، فكان يقول (مالنا لا نعمل للوصول إلى أمنية كل مصري ! وهل يمكننـــا أن نصـــل إلى ذلك إلا إذا زاحم طبيبنـــا الطبيـــب الأوربـــي ، ومهندســـنا المهندس الأوربي ، وتاجـــرنا التاجر الأجنبي ، والصـــانع منـــا الصانع الأوربي ، وماذا يكون حالنا ولا عود كبريت نوقـــد بـــها نارنا يمكننا صنعها ، ولا إبرة نخيط بها ملابسنا ، ولا فابريقـــة ننسج بها غزلنا ، ولا مركب أو سفينة نستحضر عليها ما يلزمنا من البلاد الأجنبية ! ما بالنا عن كل ذلك ، ولا نفكر فيما يجـــب علينا عمله تمهيدا لاستقلالنا أيرضينا أن يكون التعليـــم قـــاصراً على تخريج مستخدمين للحكومة وأن نكون في بلادنا غربـــاء ؟ ولو غضب علينا الأجانب يومـــاً ومنعـــونا الملبـــس والمـــأكل لأمسينا جياعاً وعرايا !!

إن البداية الحقيقية لدعوة طلعت حرب إلى إنشاء بنك وطني خالص المصرية ظهرت عام ١٩٠٧م حيث أكد تلك الدعوة بقوله " في اليوم الذي يصبح فيه المصري عضواً عاملاً في الشـــركات التي تستنفذ ينابيع ثروات البلاد ، وله فيها نصيب وافر في إدارة بنوكها ورأسمالها ، وله رأي في جميع المشروعات الماليـــة ،

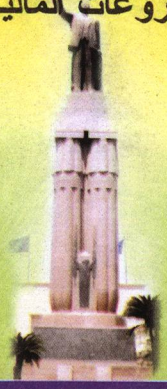

حيث أن المال هو أساس كل الأعمال في هذا العصر وقوام كل مُلك ، وفي ذلك اليوم يحق للأمة أن تطلب الاستقلال بقوة المال وبقوة العلم الحقيقي .

لم يكن يا أولادي السبيل إلى ذلك سهلاً بل كان شديد الصعوبة بسبب الأجانب الذين رأوا في هذا المشروع الوطني خطراً داهماً على بنوكهم وشركاتهم ومستقبلهم الاقتصادي بعد أن اطمأنوا تماماً منذ وقت طويل إلى إحكامهم القبضة على حاضر مصر التجاري والمالي ، وجنوا أرباحهم الطائلة .

ويأتي طلعت حرب ويوقظ الوعي ، ويدعو إلى قيام بنك وطني ، وفي هذا بالطبع النهاية لاستغلالهم واحتكارهم ، ومن هنا كانت شراسة حربهم ضده وضد الفكرة بطريق مباشر وغير مباشر ، ولو استطاع الأجانب أن ينسفوا طلعت حرب ودعوته لفعلوا دون تردد .

ومن العجيب يا أبنائي أن دعوة طلعت حرب لم تجد الصدى الشعبي المتوقع ، حيث لقيت تشجيعاً من بعض المثقفين فقط ، ولم يكن طلعت حرب يحتاج إلى الهمة والعزيمة أو الكفاءة اللازمة لتحقيق هذه المهمة ، ورغم إصداره كتاب (علاج مصر الاقتصادي ومشروع بنك المصريين) سنة ١٩١١م إلا أنه

لم يجد من الأمة الاستعداد لتأييد بحوثه مثلما حدث سنة ١٩٢٠ م .

ولا شك أن ثقافة طلعت حرب العميقة مكنته من الصمود والاستمرار وبيان الحقيقة للشعب حيث أن مجرد إنشاء بنك وطني خالص المصرية يعني نهاية دولة البنوك الأجنبية التي كانت لها السيادة على سوق المال والتجارة في مصر ، ولم يكن لها منذ أن تأسست إلا غرضاً واحداً هو مصلحة المساهمين دون مصلحة البلاد .

وكان من الضروري وقد قاربت ساعة إنشاء البنك أن يلتقي طلعت حرب بأصحاب السلطة الفعلية في البلد وهو المستعمر الإنجليزي ، ويقرر طلعت حرب الذهاب إلى وزارة المالية ليقابل رئيسها الحقيقي أي المستشار المالي الإنجليزي صاحب الكلمة العليا والأمر الناهي في الوزارة ، وقد حاول ذلك المستشار وأد الفكرة في مهدها ، واتهم طلعت حرب بالجنون قائلاً " هل تتصور أن المصريين يستطيعون أن يديروا بنكاً ؟ إنكم لا تصلحون لأعمال المال . إنها صناعة الأجانب لقد كنت أستطيع أن أمنع قيام هذا البنك ولكني وافقت على إنشائه

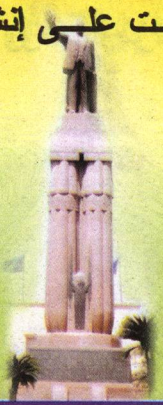
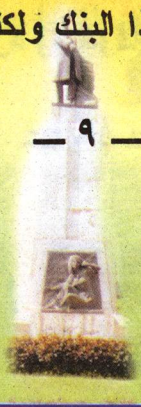

لأعطيكم درساً عملياً في الفشل ، لكني أنصحك أن تشرك معك بعض الأجانب حتى تعطي المصريين شعوراً بالثقة في هذا البنك " .

فما كان من طلعت حرب إلا أن رد بكل هدوء وثقة :ـ

" لقد قررت أن يكون هذا البنك مصرياً مائة في المائة " .

ويقدم طلعت حرب على التنفيذ ويؤسس البنك الذي سيصبح حقيقة واقعة ، وفي ١٣ إبريل ١٩٢٠م صدر مرسوم تأسيس بنك مصر .

لقد كانت مصر هي دنيا طلعت حرب ، فحبها يجري في عروقه مجرى الدم لا تبرح روحه ونفسه لحظة واحدة ، حتى عندما فكر في الاستفادة من اختراع السينما وإنشاء استديو مصر لم يتجه إلى إنتاج الأفلام الروائية بل قرر أن يقدم للمشاهد المصري صورة حقيقية لأرض مصر طولاً وعرضاً ، وألا يترك مكاناً بعيداً أو قريباً دون أن يصوره أو يعرضه ، حيث كان يدرك أن المصري البسيط لا يعرف للأسف الشديد بلاده ولا يسبح فيها أو يزور مناطقها أو محافظاتها أو المواقع المشهورة فيها ، وكان رأيه في ذلك أنه يوجد بمصر مناظر طبيعية مثل النيل ووادية ومزارعه وشجره وشادوفه وسواقيه ومراعيه

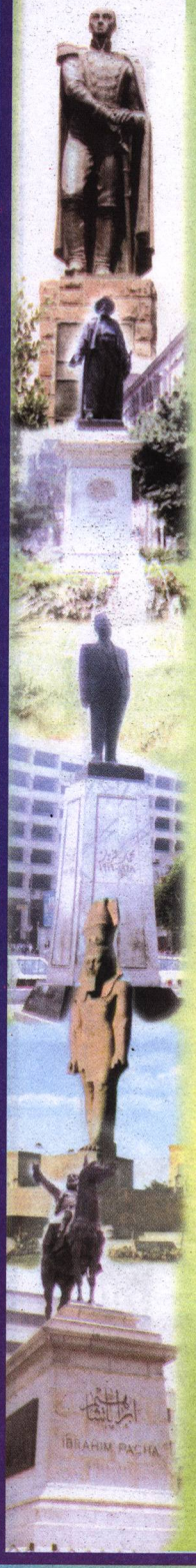

ونخيله ، وهناك صحراء مصر ورمالها وقوافلها وجمالها وواحاتها وبحيرات مصر وبحارها وسماء مصر وشمسها .

أتدرين يا رباب أن طلعت حرب في غمرة هذا الخضم الهائل من المشاكل الاقتصادية لم ينس المرأة المصرية ، فقد عرف طلعت حرب مشجعاً للمرأة فعينها موظفة وعاملة في بنك مصر وشركاته ومصانعه بل أكثر من ذلك ، وشجعها على مزاولة أعمال شاقة ، فمدرسة الطيران التي أنشأتها شركة مصر الطيران للتعليم قبلت الذكور والإناث معا وخرجت الطيارة المصرية الأولى (لطفية النادي) وقد عارض محمد طلعت حرب سفور المرأة وأصدر في ذلك كتاب " تربية المرأة والحجاب " وكتاب " المرأة الجديدة " ، وكان يذكر دائما أن الطبيعة أعدت المرأة أولاً للبيت وجعلت الأمومة رسالتها ، فأي خروج على حكم الفطرة هو خروج على الشرعية ، وأن الحجاب لا يمنع التقدم والعلم والحضارة فالنابغات من المسلمات في عهود الحضارة الإسلامية كن دائما محجبات .

ومن فضائل ذلك الرجل أيضاً يا رباب حبه للغته العربية فقد عمل على أن يتقنها حيث كان مؤمناً بأن من لا يعرف لغته غير جدير بالانتساب إلى وطنه، فاللغة هي التي تحمل روح القومية ،

والحفاظ عليها من أهم واجبات المواطن إلى جانب أنها أداة المعرفة وتعميق الانتماء ، ويزيد هذا الانتماء في الشدائد وقت احتلال الوطن .

من هنا كانت اللغة العربية واحدة من القضايا المصرية التي يجب الدفاع عنها باستماتة واعتبرها معركة حياة أو موت ، وهكذا أصر طلعت حرب على أن يجعل العربية هي لغة أول بنك مصري ، وكالعادة واجه هجوماً عنيفاً من خصومه الذين اتهموا اللغة العربية بالجمود والشيخوخة وعدم القدرة على التطور ، ولم يبال طلعت حرب بهذه الأقاويل ، ومضى في طريقه وحقق النجاح بصدق ، فلم يكن ذلك الاقتصادي البارع ممن يبحثون وراء الشهرة على حساب المصلحة القومية ، بل كان رجلاً أصيلاً مؤمناً بمبادئ رفيعة يستهدف بها المشاركة في بناء وطن قوي الدعائم يلحق بالأمم الكبرى .

وبالرغم مما هو معروف عن بُعد طلعت حرب عن السياسة إلا أن الاقتصاد في شخصه أعطى السياسة أشياء لم تكن متوقعة آنذاك ، ومن أهم ما قدم الرجل العظيم في هذا المجال تقوية الصلات بين مصر والبلدان العربية ، فقد مكن بنك مصر في عهده من أن يقيم العلاقات القوية بين مصر والبلاد

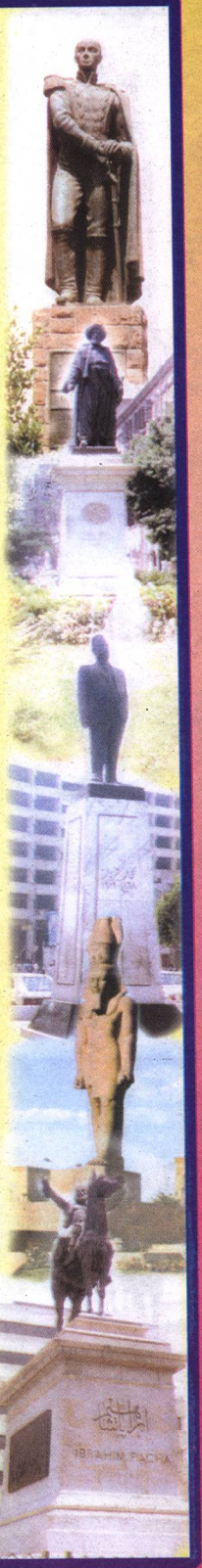

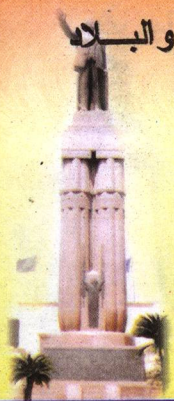

العربية ، وافتتح فروعاً ناجحة في السودان والشام والعراق وغيرها .

ولم يكن طلعت حرب يا أبنائي يطمع في إنشاء بنك مصر وطني ليرتفع عدد البنوك في مصر واحداً ويحصل موظفوه من المصريين على المرتبات العالية، بل كان همه الأول والأخير أن يؤكد يقظة الوطن المحاصر بالاحتلال والجهل ، وأن أبناء الوطن لم يموتوا كما يظن الاستعمار والأعداء ، بل لا تزال أنفاسهم تحيا ليثبتوا قدرتهم على الإنجاز المستقل بعيداً عن سلطة الحكومة والاحتلال ، ولهذا لم يكن هدفه من تأسيس بنك مصر هو مجرد القيام بالأعمال المصرفية العادية التي تستطيع البنوك الأجنبية القيام بها ، بل القيام بخدمات عامة وإقامة مشروعات حيوية لصالح الوطن والمواطنين ، ولذلك نهض طلعت حرب بإنشاء شركاته الهامة والعديدة تباعاً ليرفع اسم مصر عالياً ، ويكفي أنه في غضون ست عشرة سنة بين عامي ١٩٢٢م و ١٩٣٨ م ظهر إلى الوجود ثمان عشرة شركة عملاقة في ذلك الوقت منها شركة مطبعة مصر ، وشركة مصر للنقل والملاحة وشركة مصر للغزل والنسيج ، وشركة مصر للكتان ، وشركة مصر للطيران ، وشركة مصر للتأمين وشركة

مصر لصناعة وتجارة الزيوت ، وشركة مصر للسياحة وغيرها من العديد من الشركات التي أثرت الحياة الاقتصادية في مصر ، وأصبح لطلعت حرب بصمة كبيرة واضحة ، وصار من نجاح إلى نجاح ومن ازدهار إلى ازدهار ، وانتظر الناس أن يغطي الاقتصادي العظيم أرض البلاد جميعاً بالصبغة المصرية الخاصة حتى تتخلص تماماً من السيطرة الأجنبية على اقتصادنا ، إلا أن قوى الشر تكتلت ضده سواء من الأجانب أو من الخائنين لقضايا بلادهم وأصبحت هذه القوى تتصيد الفرص ليضربوا ضربتهم التي أتيحت لهم مع اقتراب الحرب العالمية الثانية وإعلانها في ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٩ م ، حيث تمت المؤامرة ضده ، فعندما قامت الحرب أسرع الناس إلى البنوك ليسحبوا ودائعهم وقد تملكهم الفزع والرعب على أموالهم خوفاً عليها من الضياع بسبب تلك الحرب ، وحدث هذا لبنك مصر وغيره من البنوك.

وكان هذا الموقف منتظراً ولا غرابة فيه ، واستطاع البنك أن يستجيب لطلبات العملاء في الأيام الأولى ، ولكن ظهرت المؤامرة جلية واضحة عندما سحبت الحكومة مالها من بنك مصر بلا مبرر في مفاجأة حاولت بها القضاء على طلعت حرب وعلى البنك أيضاً ، ولم يجد محمد طلعت حرب بداً من طلب

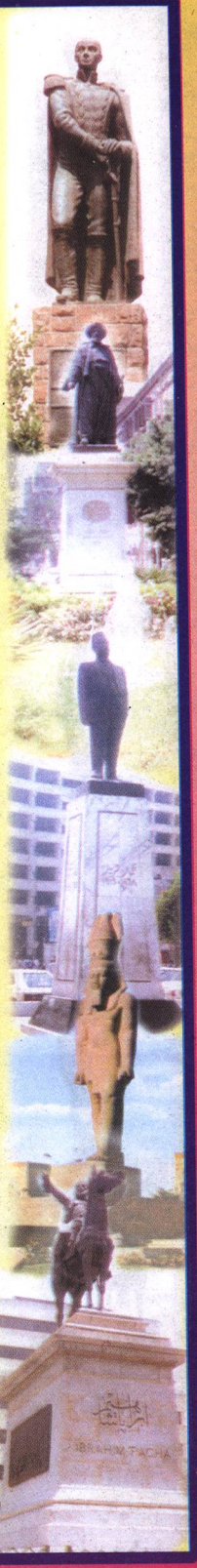

الاقتراض من البنك الأهلي بضمانات لهذا القرض ، ولكن البنك الأهلي رفض الإقراض ، فذهب طلعت حرب إلى وزير المالية لإيجاد حل لهذه الأزمة ، ولكن وزير المالية فاجأه بالموافقة على منح البنك القرض اللازم مقابل ترك طلعت حرب لبنك مصر ، فرد الرجل العظيم على الفور " إن كان في تركي حياة البنك فلأذهب أنا وليعيش البنك "

وحزن الرجل حزن العظماء والنبلاء ، ويا ليت الأمر انتهى عند ذلك الحد ، وإنما تعدى لدرجة التطاول والهجوم عليه وعلى شخصه بشدة إلا أن الشعب أنكر كل هذه المحاولات الرخيصة لتشويه عملاق من أعظم عمالقة الاقتصاد في القرن العشرين ، وظل طلعت حرب علماً خفاقاً تهفوا إليه القلوب والعقول حتى توفى في ٢١ أغسطس من عام ١٩٤١ م .

أ رأيتم يا أبنائي تاريخ ذلك الرجل ، لقد ذكرنا تمثاله وميدانه بذكريات أثْرتْ تراثنا التاريخي والاقتصادي أثناء الاحتلال ، وما هذا التمثال إلا شاهداً على قيمة هذا الرجل العملاق ، ولكن ترى من الذي قام بنحت هذا التمثال ؟

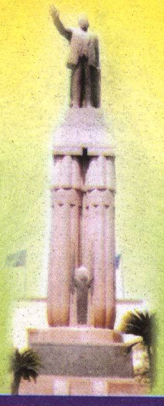

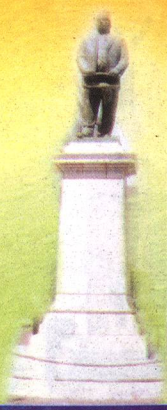

رقم الإيداع ٢٠٠١/٧٨٨٣

حقوق الطبع محفوظة